اليسار العربيّ: الأزمة والاقتراحات (٢)

عن رسم الغلاف

□ رائد شرف

كيف لعالِم الاجتماع أن يعالجَ موضوعًا كموضوع «اليسار العربيّ،» يحتمل الكثيرَ من التأويلات عن عوالمَ كثيرةٍ ومتنوّعة، هو بعيدٌ عنها، جغرافيًا، وطبقيًا، وبالتالي مفاهيميًا، من دون أن يؤدّي كلامُه فعلَ «التذاكي» على آراء أصحاب التجارب في هذه العوالم؟

قد يكون أكثرَ ما يمكن أن يقدّمَه إفادةً هو أن يقولَ بحقّ كلٍّ من هذه التجارب في إبداء رأيها، وجلاءِ مواقفها (فنًا، وكتابةً، وشتيمةً، وعنفًا)، من دون تغليب رأي قيادةٍ أو صحيفةٍ أو أيّ مركز إصدارٍ للآراء. فهو يعْلم، بفضل ما يقدّمه حقلُه المهنيُّ من أدواتٍ لفهم العالم الاجتماعيّ، أنّ الناس يعيشون تجاربَهم بقناعة لأنّ مواقعَهم فيه تقدّم لهم إثباتاتٍ تتلمّسها أجهزتُهم الإدراكيّةُ «كحقيقةٍ اجتماعيّة» وكواقعٍ منسجمٍ وفعّالٍ وصلبٍ... بل وحتميٍّ في بعض الأحيان.

هذه النظرة المفصّلة إلى العالم الاجتماعيّ قد تخفّف من الأثقال والأخطاء الحتميّة الناجمة من الحكم النظريّ العامّ على المجتمع، ومن توابع هذا الحكم على العمل السياسيّ ـ وهو حكمٌ يرتبط بنظرةٍ «كليّةٍ» إلى المجتمع لا بدّ منها ما دامت لصناعة القهر والفقر ولتوزيع الثروات الماديّة والرمزيّة مراكزَ وأقطابًا لها اليدُ الطولى على «الكلّ.»

فقط بعد هذه الاحتياطات، يمكن الانطلاقُ بمجموعةٍ من الملاحظات عن واقع اليسار العربيّ، وأخصّه اللبنانيّ، عبر مقارنة و«مَعْيرة» نظرته بمنطق نظرةٍ معرفيّةٍ متينة، تعطي تنوّعاتِ اختبارات هذا اليسار، وتنوّعاتِ نظراته، حقَّها ودورَها. كما تفي حقَّ تنوّعات اختبارات العالم الاجتماعيّ، التي يجب على اليسار أخذُها في الحسبان، عسى أن لا يَظلم في مواقفه السياسيّة المظلومين وأن لا يصطدمَ بمواقف غيره في إطار حروبٍ ثانويّة الأهميّة إذا ما قيست بالحرب على يد القهر الطويلة والخفيّة (وفي بعض الاصطدام ظلمٌ).

على أنني لا أريد أن يُفهم كلامي وكأنه درسٌ في «الديمقراطيّة،» كما يحلو لبعض الطبقيّة الليبراليّة أن تصوِّر غيرَها في المجتمع (ومنه تصويرُها لليسار الحزبيّ)، بل مجرّدُ مساهمةٍ معرفيّةٍ في إعادة تجديدٍ مستمرّةٍ تعمل على «ربط تعدّد التجارب بالمشروع الكلّيّ.» هذا الربط الضروريّ الهادف إلى معرفةٍ نقديّةٍ لتفاصيل تدخُّلِ مركز القهر في العالم الاجتماعيّ، كما في الحرب عليه، على امتداد تقليدٍ يساريٍّ عمرُه أكثرُ من قرن، قد ضمّ في خندقه مواقفَ أبرز الشعراء والمسرحيين والكتّاب والرسّامين والعلماء والناشطين من جميع المهن والمحاربين و«الاستشهاديين.»

من هنا سينسحب منّي «عالِمُ الاجتماع،» الذي يَفرض عليه منهجُه التدقيقَ بكامل العوالم المُنْجلية لكتابة مقالٍ عن اليسار العربيّ، مخْليًا مكانَه «للرسّام» فيّ، لكي أصفَ ـ ضمن تقاليد الرسم وأدواته ـ بعضَ المناحي التي أظنّها مهيمنةً على العمل السياسيّ اليساريّ... علمًا أنها لا تخصّ اليسارَ وحده، بل تقع ضمن إطارٍ عامٍّ سياسيٍّ مهيمنٍ يتبع اليسارُ أنماطه بعد أن تمّ تأديبُه (فاليسار لا يَفرض شروطَه في السياسة العربيّة، وهو ليس الآن بالقوة المهيمنة في المجتمع على ما يقول جلبير الأشقر في مقابلته مع الآداب في العدد السابق). غير أنني أودّ التنبيهَ إلى أنّ الفنونَ (والرسم ضمنها) تلعب دورَ تقسيم العالم الاجتماعيّ وتوجيهه، كما يشهد على ذلك تاريخٌ من البروباغندا الزاخرة بالاستعانة بها. وهو ما نظنّه من الصفات السياسيّة الفاعلة و«المحبَّذة» في راهننا، حيث يدُ القهر ورأس المال تطاول كلّ شيء، وبكلّ الأشكال، بما فيها الأشكالُ الفنيّة.

ضمن هذا الإطار، «أفسّر» رسمي المعروضَ على غلاف هذا العدد من الآداب، مع أنّ الحديث عن الرسم سيَحْرمه بعضَ «سحره» (وهذا ما لا يفعله فنّانٌ عادةً). وكان سماح قد طلب إليّ أن أتحدّث عن هذا الرسم، مقرونًا بموضوع الملفّ (اليسار العربيّ). وحديثي سيكون ضمن إطارٍ لا يبتعد عن أولويّات إعادة التصويب الدائمة للنظرة الكليّة إلى المجتمع في الفكر اليساريّ، وعن تخليص هذه النظرة من المعارك الثانويّة، ومن طغيان النظرات المهيمنة التي ينتجها مركزُ صناعة القهر الملحق برأس المال. ولا ينخدعنّ أحدٌ بمظهر منهجيّة هذا الكلام، إذ إنّ الرسم في لحظة «تنفيذه» يتبع منطلقاتٍ أكثرَ «عفويّةً،» كتلك المنطلقات التي تتبسّم وتفرح لتجسيدها صورةً عائليّةً مرحة،

بانسجام مع مزاج مرح. والمرح من المعاني المطلوبة قراءتُها في العمل أيضًا. فالفنون لا تلعب دومًا الدورَ التحرريّ الذي يدّعيه بعضُ خطابها التبريريّ. إنما لا يمكن إنكارُ أنّ رسّام هذه الصورة هو طالبٌ في علم الاجتماع، وله تجربةٌ حِرفيّة مدرّبة «منهجيًا» على مذهبٍ نقديّ إزاء الأفكار المهيمنة.

❖ ❖ ❖

الرسم يقول، بما يقوله، إنّ العالم الاجتماعيّ خادعٌ وأكثرُ فذلكةً. ذلك أنّ التصادم العاديّ بين يسارٍ وتنويرٍ من جهة، و«مجتمعٍ أهليّ» دينيّ من جهةٍ أخرى، ليس سوى قشرةٍ لغيره من الصدامات الاجتماعيّة ذات الجذور التاريخيّة ـ الاجتماعيّة. فـ «خطاب التنوير» يلعب دورَ التكبّر الطبقيّ، كما يفضحه مثالُ «ليبراليي الأنظمة» في امتهانهم التكبّرَ على اليسار وعلى الجامعات الدينيّة. ويقول الرسمُ بالتالي إنّ هذه الصدامات الاجتماعيّة يمْكن تخطّيها ضمن عنوانٍ نقديّ يساريّ معادٍ لرأس المال، قد لا تتفق «حلّته» مع الأنماط الرمزيّة السائدة التي لا تتوفّر شروطُ تحقيقها. فكانت «الحلّة» في الرسم اجتماعَ «اليسار» و«الدينيّ» في «الشعبيّ،» أيْ في موقع ضحيّة التكبّر الطبقيّ وموضوعه.

فالحال أنه لا تخفى على أيّ مراقبٍ متأنٍّ مضامينُ الصور النمطيّة للحجاب وللمقاومة الشعبيّة، وهي أنماطٌ مهيمنة على «مجتمع الفنّ العربيّ،» وهو ساحةُ «معركةٍ» بامتياز، ومهيمنةٌ أيضًا على مجتمع الفنّ الغربيّ عند تحدّثه عن العرب. وجلّ مضامينها تبسيطيّة، تكراريّة، تدعم انتشارَها منظّماتُ التمويل الرأسماليّة (غربيّةً وعربيّةً) وتفضّلها على غيرها لما تسلّبه من تفاصيل اختبارات المقاومة والرفض الشعبيّ و«الحجاب.»

بيْد أنّ الرسم لا يتنكّر لما يلْمسه غيرُه من المذاهب (المهيمنة) من «مظاهر» وأنماطٍ صوريّة. فهو يصوّر مجتمعًا جماهيريًا يغلب عليه الطابعُ التديّنيّ، لكنه يعيد صياغة هذه الأنماط. وهذا ليس جديدًا على الإنتاج الثقافيّ اليساريّ، إنْ لم يكن من أسباب ازدهاره «الثقافيّة» في الماضي عند العاملين اليساريين في مجالات الثقافة. فالفكر اليساريّ يتميّزْ، إنْ لم ينفردْ، بمدى استيعابه المفاهيميّ الواسع، عبر استيعابه لمنطق الطبقة العاملة، وكذلك لمنطق الطبقة المهيمنة، لمنطق السلطة، كما لمنطق الرفض. وهذا ما دفع بالمؤرّخ أريك هوبسباوم إلى اعتبار فكر ماركس النقديّ محصّلةً ممتازةً لمجموع نتاج «فكر الأنوار» وتجاربه المتعدّدة و«المتناقضة» على الأراضي الاجتماعيّة التي عاشت تأثيرَ الثورتين الصناعيّة والفرنسيّة ووعودَها ومن ثم انتكاساتِها (أريك هوبسباوم، **عصر الثورة**، الفصل الثالث عشر).

ثم إنّ الرسم، المنطلقَ من منطق صورةٍ عائليّة، يدعو القارئَ إلى أخذ تفاصيل الحياة في الحسبان. إنه ينادي بأولويّة التفصيل، ولو بمنطقٍ قد يبدو شبهَ «أمنياتيّ»، إذ يقول بظهور «المفاجأة» اليساريّة في أكثر حلقات المجتمع تراتبيّةً ومحافظة وإعادةً لإنتاج المحافظة: العائلة. إنها دعوةٌ إلى تلمّس ما قد يزلّ عن النظر في المشاهد الأكثر بديهيّة (أينبغي أن نذكّر بأنّ لتمرّد الأجيال سوابقَ وعواقب؟). وإنه لدحضٌ لتبسيط النظرة إلى المظاهرات، ولتصويرها الرومانسيّ أو العنصريّ على أنها تلاحمٌ تامٌّ للجمهور، ومن ثم فهي دعوة إلى قراءتها بعينٍ أخرى.

❖ ❖ ❖

والرسم يحتمل تأويلاتٍ أخرى، قد تُفلت من إدراك الرسّام نفسه: فهو قد يقدِّم للقارئ والمُشاهد، مثلاً، أدواتٍ لتفنيد فكر الرسّام، ولتفنيد أنماطٍ اجتماعيّةٍ تخصّه وقد لا تَدخل بالضرورة في مجال وعيه ولا هي بالضرورة «عقلانيّة.» ومن بين هذه الأنماط الأقلّ تبريرًا ربّما بمنطق العقل، إذ إنّها من النوع «التنبّؤي» (وهذا ليس بالمضرّ عمليًا في العمل النضاليّ)، يقول الرسمُ بحتميّة المستقبل لليسار، وذلك في صورة القماش الأحمر الذي يغطّي الطفلة.

وهذا فيه كثيرٌ ممّا لا يقبله العقل، لكنّ التجربة تقول إنّ اليسار كان على مرّ التاريخ العدوَّ الأشرسَ والأكثر جدّيةً في تحدّيه للرأسمالية. وتقول التجربة أيضًا إنّ الإسلام السياسيّ وعناوينَ الرفض والنقدِ الجزئيّةَ الأخرى لم تأتِ حتى الآن بأيّ جوابٍ يُذكر على الاعتداءات التي يشنّها رأسُ المال. وهي التي تغذّت من ثقافة رفض لتستولي على ساحة النضال في الأصل. أما «المقاومة،» فليست من اختراع تلك القوى، وهي لا تلبّي متطلّباتِ التصدّي لحصارٍ ذي مستوًى عالميّ. «كلّه هواة» في وجه قوة رأس المال، وزوالُ قوى «الرفض الجزئيّ» حتميّ. في ضوء هذا التقييم، تبدو عودةُ يسارٍ مهيمنٍ من أسهل الأمور. كذلك الأمرُ بالنسبة إلى عودة خرابٍ مهيمنٍ، أو «فوضى» مهيمنة، ولغيرهما من المغامرات التي قد تشكّل رافعةً عقائديّة لما تبقّى من مجموعاتٍ شعبيّة على موقع الرافض لسيطرة رأس المال. ضمن هذا المنطق، تصبح صورةُ الطفلة بالأحمر في الرسم بمثابة ردٍّ على حتميّة.

بيروت

رائد شرف

رسّام وطالب علم اجتماع في لبنان.